بُحوثُنا العلميَّةُ المُتَخصِّصة ....
سلبيَّاتُها وَوَسائِلُ النُّهُوضِ بها

بقلم ا د | أحمد عبد الغفار عبيد

للبحث العلمي في الجامعات أهمية قصوى ، لا تقل بحال عن أهمية العملية التعليمية ذاتها ؛ فالبحث العلمي بمفهومه الدقيق هو النبع الثرُّ الذي يعوّل عليه في نهوض معاهد العلم ومراكزه ومشاعله المضيئة لدى الأمم التي تستهدف الرقي ، وتتطلع إلى الارتقاء في مدارج المعرفة ، إننا عندما ندقق في طبيعة العلوم النظرية التي تعتمد عليها تخصصاتنا العلمية في ميدان الدراسات الإسلامية وما يتصل بها من علوم اللغة بصفة أساسية ، ومجموعة العلوم الإنسانية بصفة عامة مما تخدم تلك الدراسات الإسلامية واللغوية ــ عندما ندقق وننعم النظر في طبيعة هذه العلوم سنجدها تمثل نتاج جهود علماء أجلاء على امتداد مراحل شتى ، وأحقاب متباعدة زمنا ، وإن كان يجمعها أن من قاموا بها تميزوا بالإخلاص واجتهدوا في تحرير مسائلها وقضاياها ، ولم يدخروا وسعا في ذلك على الرغم مما صادفهم من صعوبات ، وقلة ما كان مهيئا لهم من وسائل تيسر البحث وتذلل مصاعبه ، وتمهد سبله ، كما هو متاح في عصرنا هذا من أصول ومصادر مجموعة جمعا منظما ، يتيح للباحث سهولة الإفادة منها ، والاطلاع على محتوياتها .

إن المشتغل بالبحث العلمي في عصرنا الراهن عليه أن يستشعر تلك الحقائق عندما يتهيأ لدخول هذه الحلبة ، وارتياد ذلك الميدان ، فليس البحث العلمي تسويدا لصحائف يرتجي من وراء إعدادها وظيفة ما ، أو الحصول على درجة علمية فحسب ، بل إن غاية البحث العلمي أجَلُّ من ذلك بكثير ، وإن تكن نُظُم التوظيف في جامعتنا ومعاهدنا العلمية قد جعلت من تلك البحوث شرطا أو متطلبا من متطلبات تلك الوظائف ، والإجازات العلمية .

فالبحث العلمي ينبغي أو يكون غاية بحد ذاته ، ولا يصح بحال أن يُنظر إليه على أنه وسيلة أو معبر لمأرب من المآرب الحياتية المُلِحَّة ؛ لأنه يتطلب صبرا ودأبا وتجردا وإخلاصا وتفانيا ... إلى كل ما يدخل في معاني السمو ونبل الغاية ، والرغبة في إضافة جديد يخدم مسيرة الحركة العلمية ، ويذلل صعوبة من صعوبات التخصص الذي يعمل الباحث في حقله .

ولا مراء في أن البحث العلمي الناهض في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث العلمية يُعَدُّ الثمرة المرجوة التي تعلق الأمة عليها الآمال في التقدم ، وتأمل من خلالها لأجيالها الواعدة ارتقاءً ، ومواكبة لمتطلبات الحياة وإيقاعها المتجدد ، ويجيب على التساؤلات المطروحة ، ولا يجمد أو يتوقف عند ما وضعه السابقون ، بل يضيف إلى جهودهم جهودا مثمرة تتناسب مع معطيات العصر ، ويفيد من التقدم التقني الذي يخدم وسائل البحث ، ويذلل كثيرا من صعوباتها ومعوقاتها .

وانطلاقا من إدراك أهمية البحث العلمي ، وجسامة ما يناط به من مهام فإن المخلصين ممن يقومون على شئونه في ميادينه المتنوعة ينتابهم شعور

قوي بالمسئولية بل بالإشفاق على أي خلل أو ضعف يصيب المشتغلين بالبحث العلمي ، أو يعوق انطلاقتهم ، أو يقلل من قوة الدفع التي يجب أن تبقى دائما في أعظم درجاتها ، وفي أوج قوتها وعنفوانها .

وهذه الإطلالة التي آخذ بك ـ أيها القاريء ـ لنتأمل معي من خلالها بعض ما يحيط بالبحث العلمي المتخصص ليس مقصدي منها بالطبع رسم صورة قاتمة للحالة التي بلغها البحث العلمي في جامعتنا العريقة ـ جامعة الأزهر ـ بقدر كونها محاولة لرصد بعض السلبيات ؛ أملا في اجتنابها ، والتحذير من مخاطرها ، والتواصي بمحاربتها ، من الباحثين والقائمين على أمورهم في آن ، بل وحشد المؤيدين لوجهة النظر هذه ، وإقناعهم بصوابها ومصداقيتها .

ولا يفوتني باديء ذي بدء أن أؤكد على حقيقة لا مراء فيها ، ولا تجاهل لها ، وهي أن هناك قطاعا كبيرا من الباحثين والباحثات والأساتذة في الأقسام العلمية المتنوعة لا يزالون يحرصون على التزام النهج القويم في بحوثهم ، ويحرصون على أن تأتي دراساتهم على أكمل صورة ، ويبذلون في سبيل ذلك أقصى ما يملكون ، وهؤلاء وإن استحقوا الشكر على حسن أدائهم لأعمالهم وإخلاصهم فيها فقد أدّوا ما وجب عليهم ، بيد أنهم بإزاء التيار المتهاون الذي تمتليء بحوثهم وأعمالهم بالسلبيات يصدق فيهم قول الشاعر الحكيم :

إنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

هذا النمط من الباحثين الجادين هم النموذج الذي ينبغي أن يحتذى ، ولكنهم

ليسوا موضع حديثي في هذه المقالة الموجزة ؛ لأن الذي يشغلني في هذا المقام هو حال الفريق الآخر الذي فرّغ البحث العلمي من مضامينه ، ودرج على الاستهانة بتلك المهام العلمية الجسيمة ، وخاض غمارها دون أن يتسلح لها بما يجب من وعي ، ويتهيأ لها بما ينبغي من جد وجهد ، ويبذل في سبيلها ما تستحق من معاناة ومثابرة .

* * * * *

وإذا أردنا أن نصف الحالة الراهنة ونرصد ملامحها فلا بد أن نعترف في البداية أن قطاعا لا يستهان به من البحوث العلمية في جامعتنا ليست على المستوى المرجوّ ، ولا يكاد يلحظ لها أي أثر إيجابي في ميادين البحث العلمي الجاد ؛ لأنها افتقدت مقومات المنهج العلمي الدقيق ، ولأن أصحابها لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير المترويّ لاستشفاف غاياتها وأهدافها ، وكان شغلهم الشاغل هو أن يفرغوا من أمرها على أية صورة كانت ، ويجتازوا ما تؤهلهم له من رتبة علمية ، أو وظيفة يسعون لشغلها .

ولا نبالغ إذا قررنا تعليقا على ذلك أن أفدح آفات البحث العلمي أن يعالجه المشتغل به بهذا الأسلوب النفعي العاجل ، الذي يتحول بهذا العمل العلمي المهم من كونه غاية مستهدفة إلى أن يصير وسيلة أو مرتقى للوصول إلى منفعة عاجلة ، أو أن يصير مطلبا شخصيا محدودا .

وهنا يأتي التساؤل الذي يفرض نفسه في هذا السياق ، ومؤداه كيف نحمي البحث العلمي المتخصص ونرتفع به عن تلك الوهدة التي يهبط به إليها

الانتهازيون ؟؟ .... في الحقيقة إن الإجابة على هذا السؤال يكمن فيها الدواء الناجع والترياق الشافي لتلك السلبيات ؛ إذ يتطلب البحث العلمي الناجح أن يستهدف الباحث من ورائه الإجابة على مجموعة من التساؤلات ، يجب على الباحث أن يطرحها على عقله وفكره ، ويجيب عليها قبل أن يقرر المضي في هذا العمل ، أو الانصراف عنه ، وهذه التساؤلات هي :

= ما جدوى هذا البحث ؟

= وما الصعوبة التي يذللها ؟ أو المشكلة التي يسهم في حلها ؟

= وما الجديد الذي يضيفه في ميدانه ؟

والباحث عندما يضع هذه التساؤلات نصب عينيه ، ويطيل التأمل في معرفة الإجابة عليها ، فإذا كانت للموضوع الذي يزمع عرضه على بساط البحث جدوى علمية ، حيث لم يسبق لأحد التعرض له ، وأن يذلل صعوبة أو يكشف غموضا ، أو يجلِّي حقيقة غائبة ، أو يشرح مسألة ملتبسة ، أو يسهل على الباحثين والدارسين استيعاب معلومة ما ، أو يفسر ظاهرة لم تكن مفهومة على نحو صحيح ....، إلى غير ذلك من الإسهامات النافعة ، ثم يكون هذا البحث مثريا للجهود العلمية التي سُبق إليها في ميدانه بحيث يضيف إلى الساحة كشفا جديدا يضاف إلى ما أسهم به السابقون ... ، إذا كانت إجابات الباحث على هذه الساؤلات إيجابية فإنه يكون قد وضع أقدامه على بداية الطريق الصحيح ، ويأتي بعد ذلك الإلمام بخطوات المنهج ، وحسن الإعداد والتخطيط ، ورصد المصادر والمراجع والدراسات السابقة

.... ، وغيرها من أدوات البحث التي ستمكن الباحث من إنجاز بحثه على النحو الأمثل .

وقد يتصور بعض الباحثين أن هذه التساؤلات لا موضع لها في الدراسات النظرية السائدة في تخصصاتنا التي ألمحنا إليها ، وأنها تتحقق بصورة أكثر وضوحا في مجال العلوم التجريبية فحسب ، وهذا وَهْمٌ لا أساس له ؛ إذ إن أي دراسة علمية تدار على أسس قويمة لا تخلو من أن تأتي بشيء جديد ، ولابد لها من أن تذلل صعوبة أو تكشف غموضا ، أو تلقي أضواء كاشفة على مشكلة ما ، أو مسألة ملتبسة في الأفهام ، فإن لم تحقق الدراسة الجديدة أي هدف من تلك الأهداف فما الجدوى منها ؟ وما قيمة الجهد الذي يبذل فيها ؟

ومن المقولات التي يرددها أنصار اختزال البحوث وتسطيحها مقولة : " ما ترك الأول للآخر شيئا " ، أو أن مسائل العلم في بعض الميادين قد قتلت بحثا ، بحيث يصعب على الباحث المحدث أن يقع على الجديد المبتكر ....، وهي مقولات محبطة ، يتذرع بها الكسالى ، ويتعلق بها الخاملون ، ليسوغوا بها لأنفسهم اللجوء إلى اجترار ما سُبقوا إليهم ، أو إعادة عرضه ، أو التطفل على موائده ، ويحسبون أنهم قد صنعوا شيئا ، وهم في ذلك واهمون ، ووهمهم هذا لا يثبت عند التمحيص .

فعلى الرغم من أن كثيرا من قضايا العلوم الإسلامية والعربية ، وما يتصل بها من العلوم الإنسانية التي هي مجال تخصصاتنا قد تناولها السابقون فإن هناك جوانب لتلك القضايا ما تزال بحاجة إلى البحث والتحرير والتدقيق

وكثير منها قد تناوله الباحثون السابقون تناولا عاما ، لم يشمل جوانبها كلها ، ولا بحث دقائقها وتفصيلاتها ، كما أن هناك من تلك الجوانب ما أضاف إليه عصرنا الحالي أبعادا جديدة ، أو كشف بعض مشكلاته ، فاقتضى الأمر إعادة بحثه من زاوية جديدة لم يسبق أن رصد من خلالها ....، إلى غير ذلك مما تستفيده الإنسانية على امتداد العصور ، وتكتسبه على تتابع الأزمنة وتعاقب الأجيال .

فميدان البحث العلمي الدقيق والنافع ما يزال رحبا فسيحا ، بل إن هناك من الظواهر ما يهيب بالباحثين المحدثين إلى أن يرتادوا آفاقه ، وأن يعرضوه على بساط البحث المستوعب ، ويديروا حوله النظر المتأمل ، والحوار الواعي ؛ لكشف ما يحيط به ، واستيعاب ما ينطوي عليه .

إننا لو تأملنا ميدانا واحدا من ميادين الدراسات الأدبية ـ على سبيل المثال ـ لتأكّد لنا صدق الملحظ الذي نشير إليه ، وهو أن ميادين البحث العلمي المتعمق لا تكاد تنحصر ، وأنها من الرحابة بحيث تدحض الزعم الذي يزعمه الشاكون من ضيق مجالات البحث ونضوب موارده .

ففي ميدان التأريخ للأدب العربي وظواهره المتنوعة على امتداد العصور والأحقاب بحوث ودراسات كثيرة للقدماء والمحدثين ، والتساؤل الذي يطرح نفسه في هذا السياق : هل تناول هؤلاء الباحثون جميع ظواهر الأدب وألوانه ومبدعيه ؟ أو أن أحكامهم في كثير من الأحيان مالت إلى التعميم ، واكتفوا بالأحكام الغالبية ، ولم يكن بحثهم جامعا مانعا ؟ .

الحقيقة أن ما قرره أولئك الباحثون والمؤلفون لا يعدو أن يكون أحكاما عامة واستنتاجات غالبية ، إن صدقت في سياقها العام ، فهي لا تصدق في تفصيلاتها ، ولا تنطبق على سائر الأحوال ؛ ومن ثم تبدو للباحث المدقق أن هناك أعدادا لا يستهان بها من الظواهر والقضايا التي تحتاج إلى من يبذل الجهد الدءوب في سبيل الوقوف على حقيقتها ، وكشف ما تنطوي عليه من دلالات ، ومن الخطأ البيّن في مثل تلك الحالات أن يقنع الباحث المدقق بالأحكام العامة ، أو الاستنتاجات القائمة على استقراء ناقص ، أو حكم غالبيّ.

وثمة مثل آخر يؤكد ما سبق ، فالشعراء الذين نالوا شهرة ، وسار شعرهم على ألسنة الرواة ، ودوّن في عصر التدوين – هؤلاء الشعراء لو تأملنا ما يمثلون بالإضافة إلى سائر الشعراء ممن لم ينالوا مثل حظوتهم ، ولم يقدّر لهم أن يشتهروا كاشتهارهم لرأينا أن الذين سار ذكرهم لا يمثلون إلا قطاعا ضئيلا ضمن حشد هائل من المبدعين الذين لم يشتهروا ، ولم يحفظ شعرهم !!

وإذا كان للباحثين المتخصصين في الدراسات الأدبية بعض العذر في الانصراف عن دراسة هؤلاء المبدعين القدامى ؛ لقلة أخبارهم ، وضياع نتاجهم ، وصعوبة الوقوف على آثارهم – فما اعتذارهم عن دراسة من ينتمون إلى أدبنا الحديث والمعاصر – وهم من الكثرة بمكان – ولم يجدوا بعد من يهتم بأمرهم أو يعنى بدرس نتاجهم ، وتفرس مواهبهم وإبداعاتهم .

وهل يكفي أن تختزل إبداعات ونتاج قرائح الأدباء والشعراء في أمتنا العربية في سائر عصورها في قلة قليلة قُدِّر لها أن تتسلط عليها الأضواء لأمر أو لآخر ، ويكتفي اللاحقون بترديد ما قرره سابقوهم عن أولئك المحظوظين دون من عداهم ؟!!! .

هذان المثلان اللذان طرحناهما توجد لهما نظائر كثيرة ، فضلا عما تتطلبه دراسة الظواهر المتعلقة بالفنون الأدبية المتنوعة ، وأطوارها في مختلف العصور ، وما اعتراها من تغيُّر ، وما أصابها من تجدد وتحول ، وارتقاء أو ضعف ، وما استجد على صفحتها ، وما أضافه الأدباء في العصور المتعاقبة ، وصلة ذلك كله بالمؤثرات المتنوعة ، المرتبطة بأحداث كل عصر وتأثيراته ، مما يعني أن هناك ميادين كثيرة للبحث العلمي ما تزال تنادي الباحثين المخلصين ليضطلعوا بمسئوليتها ، ويتجشموا أعباء بحثها وتجلية ما يكتنفها من غموض وهي تهيب بالباحثين أن يشمروا عن ساعد الجد ، ويدأبوا على التنقيب عن مثل تلك الموضات ذات القيمة العلمية النافعة بدلا من الاحتيال على ترديد أو اجترار الموضوعات التي سبق بحثها ، ولم تعد تتحمل المزيد من الترديد والتكرار دون جدوى ، ودون إضافة جديد .

إن الباحث الذي تسمو همته إلى أمثال تلك الموضوعات غير المسبوقة ، ويحرص على التجديد والابتكار سيجد مزيدا من الدقائق العلمية التي تحتاج إلى أولي العزم من الباحثين ، ممن يستعذبون العناء ، ويقدمون على اقتحام الصعاب ، ويبذلون عن طواعية الجهد المضني في سبيل كشف علمي جديد

أو بحث موضوع طريف لم يسبق لأحد بحثه ، تضاف به إلى تخصص أولئك الباحثين لبنات تعلي من صرح الفكر الناهض للأمة ، وترفع من شأن الجامعة العريقة التي يشرفون بالانتساب إليها .

* * * * *

إذا تجاوزنا هذه النقطة وأردنا أن نستعرض مداخل السلبيات في البحث العلمي في جامعتنا خاصة ، وجامعاتنا المصرية على جهة العموم فإننا سنراها كثيرة متشعبة ، يتوالد بعضها من بعض ، ويستفحل خطرها وضررها ، فتَمْثُل وكأنها دورة من الاضطراب إذا تردى في وهداتها المشتغل بالبحث العلمي ، ولم يتصد لها القائمون على تقويم تلك البحوث لم يعرفوا سبيلا للنهوض من عثراتها !!

وهنا أقول في إيجاز وصراحة : إن أهم ما يضرُّ بالبحث العلمي عندنا ويقعد بالباحثين عن الإجادة ــ ضعف همة الباحث من جانب ، ومجاملة القائمين على إجازة مثل تلك البحوث وتمريرها دون استحقاق من جانب آخر ولا يتصور نهوض للبحث العلمي إلا بإصلاح الخلل في الجانبين كليهما ، وأداء كل من الباحث والقيِّم عليه وظيفَتَه ودوره على النحو الأمثل.

إن افتقاد الباحث لروح المثابرة ، والاستعداد لبذل الجهد وتحمل تبعات البحث العلمي وأعبائه طواعية وعن رضى واقتناع ، استشعارا منه للمسئولية وأهمية ما يقوم به ، وضرورة أن تُحشد لهذا العمل كل الطاقات ، وتسخر الإمكانات ، وأن يدرك الباحث أنه طالما ارتضى لنفسه أن يسلك هذا الطريق

ويشتغل بهذه المهام أن يُفرِّغ نفسه لها ، وأن يستعد لتحمل تبعاتها وواجباتها ، وألا يساوم في ذلك ، أو يتنصل في أي مرحلة من تلك المهام والواجبات التي ألزم نفسه بها عندما قبل أن ينخرط في هذا السلك : سلك البحث العلمي ، والدخول إلى أروقة العلماء ، الذين يعدهم المجتمع لمهمة تربية الأجيال ، والاضطلاع بمهام توجيه الفكر والثقافة والحركة العلمية في أخطر ميادينها ، وهو ميدان الجامعات ومراكز البحوث .

ويأتي بعد هذا السبب العام أسباب وبواعث أخرى تؤدي إلى تفاقم السلبيات واستشرائها ... ، من أهمها :

= التسرع وافتقاد التروي والتدقيق في اختيار موضوع الدراسة التي يزمع الباحث إدارة بحثه وجهده العلمي حولها ، وهي مرتبطة بالملحظ العام الذي أشرت إليه آنفا .. ، فبعض الباحثين يكون على عجلة من أمره ، فيسرع في اختيار الموضوع ، ويمضي في إجراءات تسجيله ، وقد يكون في هذه الأثناء فرحا وراضيا لفراغه من تلك الأمور في وقت وجيز ، ويُغفل أمر التأكد من قدرته على إنجاز هذا الموضوع ، والتحقق من صلاحيته للدرس ، وتوفر مقومات دراسته .. ، من أهميته ، وجدته ، وتوفر مصادره ومراجعه ... وأن أحدا من الباحثين لم يعرض له من قبل ... إلى غير ذلك من الخطوات التي يجب أن يسلكها الباحث باديء ذي بدء ، وبعد ذلك يفاجأ الباحث بأن تعجُّله هذا قد كلفه الكثير ، وبدلا من أن ينجز دراسته في وقت مناسب ، يتعطل وتتعثر به الخُطَى ، وربما رأى من زملائه ممن تأخر به الوقت بعض

الشيء في اختيار موضوع بحثه ، ولكنه أحسن الاختيار ، ودقق فيما هو مقبل عليه ، ومن ثم كانت عاقبة أمره نجاحا وتوفيقا ، بينما تعثر زميله المتعجل وضاع جهده ووقته سدى ، ولم يجن من تسرعه سوى الندم .

= افتقاد المنهج والانحراف عن الجادة . وهي ظاهرة عامة يندرج تحتها أخطاء عديدة وسلبيات شتى ، وأشير هنا لبعض مظاهرها وانعكاساتها ونتائجها :

١) بعض الباحثين يدخل لموضوعه وقد رصد في سياق إعداده له عددا من المصادر والمراجع ، فيضعها بين يديه في أثناء الدراسة المزعومة ويلفق منها نقولا يملأ بها صلب صحائفه ، ويثقل بالإحالة عليها حواشيها ، ويحار القاريء لتلك الصحائف في الاهتداء إلى ما أتي به الدارس الذي يقدم تلك الدراسة ممهورة باسمه ، ونْختار لها عنوانا له طنين وجلبة ، ولا يجد القاريء بين ذلك كله إضافة ذات بال ، أو قضية ناقشها ، أو مسألة مضطربة أدلى فيها برأي ، أو تناولها بتعقيب ، تتكشف من خلاله للقاريء شخصية ذلك الباحث وفكره وموقفه !!

لقد بُحَّتْ أصواتنا في التنبيه على خطأ هذا المسلك ومجافاته لبدهيات البحث العلمي الصحيح ، ومن أسف أن قليلين هم الذين يعيرون هذه الأمور اهتمامهم ، أما السواد الأعظم فحدِّث عن سوء صنيعهم ولا حرج ، ويضاعف من تفاقم ذلك واستشراء خطره أنهم يجدون من الأساتذة من يتسامحون معهم ، ويمررون بحوثهم على ما فيها من تجاوزات !!

٢) ومن الباحثين من يحلو له أن يختلق معارك وهمية مع من سبقه من الباحثين ممن تناول بعض جوانب موضوعه ، وأدلى فيها برأي ؛ ظنا منه أنه لن تطول قامته في ميدان البحث العلمي إلا إذا نازل هؤلاء وصال معهم وجال ، وقد يعمد إلى تسفيه آرائهم وتشويهها أو بترها عن سياقها ... ، وتلك حيل رخيصة لا تروج إلا عند أدعياء العلم والمتطفلين على موائد العلماء ، وكثيرا ما يكون هذا المسلك متكلفا مصطنعا ، وما هكذا تُطرح آراء العلماء والباحثين ويشار إلى سبقهم ، وتقدر جهودهم !! وحسْبُ الباحث المتأخر زمنا أن ينبه على هفوات من سبقوه إن تيقن منها ، وأن يذكر أياديهم وجهودهم وينسبها إليهم ، دون إفراط أو جحود .

٣) ومن الباحثين من تقرأ بحثه فتجده بعيدا تماما عن دلالة عنوانه ، بل ربما وجدته خارجا عن إطار تخصصه جملة وتفصيلا ، ويأخذنا العجب عندما نجد هذا التيه الذي يضرب فيه الباحث على غير هدى ، وكأنَّ أمثال هذا الباحث يعتقدون أن العبرة بجمال العنوانات ، وكثرة عدد الصفحات ، وضخامة البحث ...، دون أدنى عناية بالمضمون والمحتوى ، فإذا توقف الأستاذ عن قبول أو إجازة مثل ذلك البحث ملأ هؤلاء الأدعياء الدنيا صراخا شاكين من قسوة الأستاذ ، ووسموه بالتعنت ، وألصقوا به الاتهامات ، وذنبه - إن كان له ذنب - أنه لم يشاركهم في هذا الجرم الذي أجرموه في حق أنفسهم أولا ، ثم في حق البحث العلمي ، وحق مكانتهم التي تؤهلهم لها مجتمعاتهم وأمتهم ، ليكونوا قادة الفكر في المستقبل !! .

وهناك المزيد والمزيد من الصور السلبية التي لو حاولنا تتبعها وحصرها لضاق المقام عن استيعابها ، ولاحتاجت إلى سفر كبير ، يلم شتاتها ، ويتتبع جذورها وامتداداتها ، وأكثرها معروف للمشتغلين بالبحث العلمي ، يرددونها في مجالسهم ، ويهمس بها بعضهم لبعض ، ولو أنصفوا لجأروا بها شاكين ، ولما سكتوا عليها ، أو تسامحوا بشأنها !!

ويجدر التنبيه في هذا السياق أن البحث العلمي في جامعاتنا محتاج إلى وقفة فاحصة من القائمين على أمره من الأساتذة المشرفين ، والمقننين للبحث الواضعين لضوابطه ، الحريصين على سلامة مسيرته ، والارتفاع به عن زيف المزيفين ، وإبعاد العناصر المتطفلة عن ساحاته وميادينه ، التي ينبغي أن تصان وتحترم ، ولا يسمح بأن يتسلل إلى حماها إلا من أخذ لها أُهْبَتَها ، وتحلَّى بفضائلها ، وتنزه عما لا يليق بها .

وهناك ـ في تقديري ـ مجموعة من الأمور يمكن أن تسهم في الارتقاء بالبحث العلمي في جامعاتنا ومراكزنا البحثية ألخصها في النقاط التالية :

أولا : الإعداد الجيد للباحثين الذين يؤهَّلون للانضواء في سلك الهيئة التدريسية ، أو التفرغ للبحث العلمي في الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة ومراكز البحوث ؛ وذلك بإعادة النظر في برامج الدراسة في مرحلة الليسانس والبكالوريوس ، ثم في التمهيدي للماجستير والدكتوراه ... وحتى نهاية تلك المراحل ، بحيث يتم إرساء الأسس الصحيحة للبحث العلمي وتأهيل الدارسين للتعرف على المقومات الصحيحة للبحث ، والأصول التي

ينبغـي أن يحـرص عليهـا البـاحث فـي اختيـار الموضـوع ، والتخطيـط لــه ، وكيفية الإفادة من المصادر والمراجع ، وتنظيم البحوث ، واستيفاء مكوناتها .

ثانيا : أن يحرص القائمون علـى فحص النتـاج العلمـي علـى الالـتزام بالدقـة التامة في تقويم تلك البحوث ، وقراءتها قراءة دقيقـة فاحصـة ، وإعطـاء كـل منها ما يستحق من تقدير ، وإجـازة مـا يستحق الإجـازة ، واستبعاد مـا لا يستحق ، دون مجاملة ، ودون إغضاء على التقصـير ، وينبغـي أن يتواصـى الأساتذة كـل فـي تخصصـه بـالتزام الدقـة والموضوعيـة ؛ كـي توصـد منـافذ التردي والضعف ، وتستقيم الأمور علـى نصابهـا الصحيـح ، ومن ثـم نكفـل لجامعتنـا ومراكزنـا العلميـة الاحـترام والتقديـر اللائقيـن بهـا ، داخـل مصـر وخارجها ، وحتى يظل لهذه وتلك طيـب الأحدوثـة ، والتقديـر العلمـي الرائـد الذي عرفت به جامعة الأزهر بصفة خاصة ، علـى المسـتوى العـالمي ، فـي ريادتها للدراسات الإسلامية والعربية .

ثالثا : أن يقوم نخبة من الأساتذة المشهود لهم بالكفاءة والخبرة والإخلاص في كل تخصص علمي على حدة بتشكيل لجنـة خاصـة فيمـا بينهـم تكـون مهمتهـا توجيه الباحثين من الشباب عن طريق اقتراح ميادين بحثيـة متكاملـة ، تـدرك تلك النخبة من الأساتذة بحسها العلمي وخبرتها حاجة ذلك التخصص لخـوض تلك الميادين ، وإنجاز تلك المهام العلمية الجليلة ، وتكون مهمتهم هـذه بمثابـة الضريبة التي يؤديها هؤلاء الأعلام لتلاميذهم ومـن سيخلفونهم فـي مواقعهـم العلمية مستقبلا ؛ ليستمر العطاء ، وتمتد الروافد الثرة على امتـداد الأجيـال ، وتعاقب المراحل .

رابعا : أن تُرصد حوافز مادية وأدبية للباحثين الجادين الذين تكون أعمالهم غير مسبوقة ، وأداؤهم مميزا ومتفردا في بابه ، وفي ذلك تشجيع لهم ، وحفزٌ لغيرهم ليحذو حذوهم .

خامسا : أن يكون تقويم البحوث في ترقيات هيئة التدريس بطريقة سرية بقدر المستطاع ؛ تفاديا للحرج ، وتحقيقا للنزاهة والعدالة ، ويمكن أن توزع البحوث على أكثر من أستاذ بحيث تُراعى فيها تلك السرية ، ثم تجمع درجات تقويمها ، ويأخذ كل باحث ما يستحق ، دون مجاملة ، ودون توصية أو إلحاح ، وهذا النظام يحقق العدالة ، ويرفع الحرج عن الأساتذة ، بل يجنبهم المتاعب التي قد يتعرضون لها ممن يُقَدِّم نتاجهم للتحكيم ، وكثيرا ما نسمع عن صراعات وتصفية حسابات ... إلى غير ذلك من المهاترات التي تتم ، ولا صلة لها بالبحث العلمي النزيه ، وتفاديا لذلك كله نطالب بالسرية ، ولْتعامل تلك البحوث معاملة كراسة الإجابة في الامتحان التحريري ، ولا أظن أن تحقيق تلك السرية عسير ، وقد أخذت به بعض الجامعات العربية ، وطبقته بعض اللجان العلمية الدائمة في جامعة الأزهر .

وبهذه المقترحات وما ينحو نحوها تؤتي تلك الجهود المتكاملة ثمارها ، وتطرد المسيرة العلمية الناهضة ، وتبقى جذوة النشاط العلمي متقدة ، وتظل أعلامه خفاقة .

والله من وراء القصد . ومنه العون . وبه التوفيق .